وهبوطاً وهو يركب « الاسكاليتور » أو الدَرَج المتحرك صاعداً هابطاً إلى خطوطه المتجهة إلى كل لندن من تحت الأرض [١٦] . والغريب أن هذه الظاهرة لم تلفت نظر الشدياق أثناء وجوده فى لندن مع أن مترو الأنفاق كان فى أول ظهوره فى زمن الشدياق . أقصد من كلامى أن ملاحظة الظواهر وبخاصة الجديد والغريب أو المدهش أمر طبيعى للكاتب . ولكن هناك من يقف عند الظاهرة وقوفاً على السطح ، وهناك من يفكر ليصل إلى شىء أعمق . كما أن هناك من يحسن التلقى والإدراك الصحيح ، وهناك من يرى الظاهرة رؤية بصرية ولا ينفذ إلى أعماقها ؛ وغالباً ما يكون حكمه بعيداً عن الصحة . خذ مثلاً قوله عن أسباب الفساد فى باريس الذى يقول فيه : « وهناك أسباب أخرى كثيرة للفساد فى الديار . وذلك أنه لما كانت جميع الأشغال فى باريس تديرها النساء ، وكان منهن غسالات وخدامات لهن يأخذن ثياب السكان . . . أمكن للرجل أن يصاحب واحدة منهن فتأتيه مياومةً إذا شاء بحجة أنها تقضيه شيئاً أو تبيعه حاجة . . . . » وقوله « . . بل ربما صاحب الرجل امرأة من نفس الدار التى يسكنها ، لأن ديار هذه المدينة العامرة لما كانت تشتمل على عدة طبقات ، وكان أصغرها يحوى فى الأقل عشرين نفساً من رجال ونساء ، أمكن للرجل أن يعاشر إحدى جاراته . بل المتزوجون المقيمون فى هذه الديار لا يأمنون على نسائهم وبناتهم